أسئلة الثقافة وشرط المقاومة

المتوكل طه

الثقافة، بدعامتيها المادية والروحية، هي، في محصلة الأمر، تلك المعايير التي نجابه بها الجديد والطارئ والغريب، بمعنى أن الثقافة تعطينا الميزان الذي نقيس به الصواب والخطأ، الأخلاقي وغير الأخلاقي، النافع والضار.

هذا الميزان المنصوب دائماً أمام أعيننا لا يصوغه نتاج النخبة، ولا معايير أخرى مستوردة، ولا معايير مفروضة، ولا ما يستحسنه البشر. هذا الميزان هو ما يعكس روح الجماعة أو خيرها الجمعي أو ما راكمه نشاط تلك الجماعة في مكانها وزمانها، وعلاقاتها، بعضها ببعض، أو علاقاتها بغيرها من الجماعات، مضافاً إلى ذلك ما يمنحه أو يفرضه أو يقبله أو يرفضه الدين. الدين نزعة حقيقية لكل جماعة، الغريزة الدينية أو الدافعية الدينية هي أحد الدوافع التي تم السكوت عنها في أبحاث السسيولوجيين والمفكرين في خضم ثلاثة قرون من الفكر الغربي الذي استبعد كل ما لا يدخل المختبر أو يقيسه الباروميتر.

الثقافة إذاً، بدعامتيها الروحية والمادية، هي الأنماط الذهنية والوجدانية والسلوكية التي تم تثبيتها خلال الزمن، فصارت إلى حدٍ ما مطلقة، نهائية، مقدسة، صارت جزءاً من التكوين الروحي والنفسي والتعريف الكلي للوجود وهدفه وأسلوب ممارسة ذلك الوجود وشكلها. وكلما كانت تلك الأنماط الثقافية داخلية، كانت عصية على التغيير أو التغير أو المناقشة أو إعادة المناقشة، ولهذا، يمكن للمرء أن يغير ملابسه أو أدوات منزله، ولكن من الصعب عليه أن يغير معتقداً يؤمن به.

نقول هذا الكلام لنخلص إلى القول: إن الثقافة بمفهومها الواسع، الحضاري المدني، التاريخي العريض، هي الهوية الحقيقية للمرء وللجماعة، يواجهُ بها المعضلات، وتُتقى بها الأزمات. وكلما كانت هذه الثقافة واسعة، مرنة، ذات منظور عميق وممتد، وتملك إجابات وردوداً كافية ومقنعة وذات تأثير، استطاعت هذه الثقافة الصمود والمقاومة والصعود.

قوة الثقافة، أية ثقافة، تكمن في قدرتها على المجابهة من جهة، وقدرتها على الحوار وتقديم الإجابات والردود، وسرعة استجابتها للجديد والطارئ والغريب. الثقافة التي ماتت كانت متحجرة، مغلقة، لم تستطع أن تفهم أو تُدرك ما يدور خارجها. ولن ندخل الآن في جدل عقيم حول اندغام الحضارات وتأثيرها، بعضها على بعضها الآخر، فإننا قد نميل إلى حديّة شبنغلر الذي أنكر هذا تماماً، وهناك حضارة تسود، وهناك حضارة تموت، والحضارتان المتجاورتان تتصارعان فيما بينهما أكثر مما تتبادلان المنافع، وللدقة أكثر، هناك حضارة قوية ذات إشعاع، وهناك حضارة أقل قوة تستقبل الإشعاع. القوي يفرض، أو يحاول فرض أسلوب قوته ولغة قوته وفن قوته. كان هيغل تعبيراً عن قوة نابليون، وكان داروين تعبيراً عن استعمارية حكومة جلالتها، تماماً كما هو رامبو تعبيرٌ عن فظاظة الإمبريالية وشراستها، كما كان ابن عربي تعبيراً عن وصول «التأويلية» في الإسلام إلى الدرجة الأخيرة في سلم الحفر تحت معنى الألوهية، ولهذا، فإن قوة الثقافة تدفعها إلى فرض رموزها وتعميقها بالإقناع والحوار، كما فعلت الحضارة العربية الإسلامية، أو بالجبر والإكراه، كما فعلت الحضارات الأخرى.

هذا الكلام النظري لا يعفينا من السؤال: ما هي مقومات ثقافتنا؟! هل يمكن الكلام عن ثقافة خاصة بنا؟! هل هناك وحدة مصطلح ووحدة مفهوم لهذه الثقافة؟! هل يمكن الحديث عن ثقافة متعددة إلى ثقافة واحدة؟! وأخيراً، هل هناك ثقافة عربية إسلامية يتفق عليها الجميع؟! وفي فلسطين؛ ما هي الدوافع الثقافية التي تدفعنا إلى البقاء والصمود والمقاومة؟! هذه الأسئلة لا نندفع إليها بفعل هزيمة النظام العربي فقط، فقد طُرحت هذه الأسئلة، أيضاً، في أوج قوة الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أن الحضارات القوية تطرح أسئلتها دائماً، ودائماً هي مستثارة، ودائماً هي محرضة، قادرة على مناقشة ذاتها. هذا هو قدر الحضارات العظيمة، وإذا توقفت أية ثقافة عن طرح الأسئلة، فإنها تموت عملياً.

الأسئلة الآنفة الذكر نطرحها الآن، لأن هناك شرذمة حقيقية في تعريف الوجهة الحضارية للمجتمعات العربية والشعوب الإسلامية، هناك إسلام متعدد، وهناك عروبة متعددة، وهناك تجارب علمانية مختلفة كل الاختلاف، وهناك تجارب إسلامية منغلقة كل الانغلاق، وهناك تغريب وغربة، وهناك تطرّف وطرافة، إن شئت، والأهم من كل هذا، هناك تراكمات طويلة وعميقة من الرؤى والاجتهادات المختلفة والمتناقضة للإسلام الأول، بحيث أثمرت اليوم أشكالاً وأحزاباً وحركات قد تبدو غير مفهومة، أو تبدو تثير الاستغراب. نقول ذلك بعد أن أدى فهم معين للإسلام إلى أحضان الخيانة العلنية، وأدى فهم آخر للإسلام إلى الاشتباك مع الغرب اشتباكاً غير متكافئ وهزيمة ساحقة حتى الآن، على الأقل.

ماذا عن الفلسطينيين إذاً؟! هل هناك أزمة على هذا المستوى؟! وما هي المفاعيل الثقافية التي تلعب الدور الأكبر في إذكاء نار المقاومة، والتصدي لهذا العدو الذي يشكل التقطير الأخير للفكر الغربي، مضافاً إليه العقد والأوهام والأمراض التاريخية التي يجرها ويحملها شعب يعتقد أنه أفضل شعوب الأرض!!

في فلسطين، تجري حقاً مواجهة بين عالمين مختلفين، من جهة، هناك العرب والمسلمون الذين يمثلون ثقافة عريضة وغنية وقديمة تعودت التسامح والحوار والوضوح والتعدد، في منطقة تعودت الموزاييك العقدي والعرقي منذ فجر التاريخ، وهناك المحتل الإسرائيلي اليهودي الذي يمثل ثقافة قديمة صاغتها الهواجس

والأحلام، تعودت تقديس الجماعة وروح الأسلاف، ورأت العالم مقسوماً دون تساوٍ أو تسامح، لا تعترف بالصوت الآخر إلاّ من حيث إمكانية استغلاله أو استخدامه. ثقافتان مختلفتان كل الاختلاف، حتى فكرة الإله الواحد، تم الخلاف بشأنها إلى أبعد الحدود، فإذا كان الله في ثقافة هذه المنطقة هو الإله الواحد المطلق، القادر، الرحيم، الذي لا يفرّق بين البشر، ويغفر لجميع البشر، نجد الإله لدى المحتل اليهودي ليس إلهاً للجميع ولا يغفر للجميع، وينحاز إلى إنسان معين ومكان معين.

ولأسباب تاريخية وحضارية نتجاوزها الآن لضيق الوقت، فقد تم تبني المفهوم اليهودي للمسيحية في الغرب، بحيث أصبحت الليبرالية الغربية في أفضل حالاتها غير بعيدة عن ذلك المركب الغريب والخليط العجيب بين المسيحية الغربية واليهودية المشرقية، بحيث تحول اليهودي من ملعون ومطارد إلى رجل مبارك يضيف إلى العالم ما لا يستطيع أحد أن يضيفه، ومن عجب أن يخرج اليهودي من «الغيتو» في المدينة ليحكم المدينة الغربية من خلال دوائر صنع أهم القرارات فيها، إلى الدرجة التي ذكرت فيها كتب التاريخ أن بابوات مشهورين جاؤوا من «الغيتو» هذا.

وعلى هذا، فإن تبني الغرب إسرائيل لم يأتِ، فقط، من منطلق المصالح والدور الوظيفي الذي ستلعبه إسرائيل، وهذا منطق صحيح، ولكن بسبب العقيدة، أيضاً، وهذا ما يتم إخفاؤه لأسباب مختلفة لا نخوض فيها الآن.

ثقافة المحتلّ الإسرائيلي ومن يدعمه ثقافة أرضية، على الرغم من مشرقيتها، ثقافة تُعلي من شأن كل ما يمكن وزنه وقياسه، وهي ثقافة حسّية لا تتحدث عن العالم الآخر، وهي ثقافة كابوسية يُترك فيها المرء وحده، أمام لا وعيه تماماً، وهي ثقافة ماضوية الأسلاف، هم الأبطال والأحفاد، هم العصاة الذين سيحلّ عليهم غضب الربّ.

الفلسطينيون الذين طاردهم الذبح والقتل منذ ما يزيد على قرن مجبرون على المعرفة كأحد أشكال المقاومة، ومجبرون على الالتجاء إلى ما تمنحهم إياه ثقافتهم من أنماط القوة فيها، كالشهادة والتضحية والالتزام والانتماء، ومجبرون على عدم طرح الأسئلة التي تفرق، والالتفاف حول الإجابات التي تجمع، وقد يكون من دواعي الفخر أن يكون الإسلام السني في فلسطين يقدم أروع النماذج للعالم العربي والإسلامي كلّه في مقاومة الاحتلال. والفلسطينيون مجبرون على فهم ثقافتهم من مدخلها القوي والناصع، فالنصر لا تصنعه المقولات الرخوة والغامضة، بقدر ما تصنعه المقولات التي تقدم الجزاء.

الفلسطينيون الذين يمارسون حياتهم على هذه الأرض وفي المنافي، الذين يمثلون ثقافة العرب والمسلمين في هذه الألفية الثالثة، مجبرون على مقاومة المحتلّ وثقافته بالالتجاء إلى ثقافتهم التي تمنحهم قوة الفعل وأخذ المبادرة من جهة، وتمنحهم، أيضاً، الشعور بالرضى والاكتفاء بسبب ذلك الفعل. الثقافة القوية هي التي تعطي هذا الإحساس للمنتمين إليها.

بعد 11 أيلول 2001، من الضروري الإشارة إلى ع دم الانجرار وراء ما يطرح من أقوال باتت غير ذات ضرورة، من أمثال أن الإسلام وسطي، أو أن الإسلام يحارب الإرهاب، وأنه يتقبل الآخر ولا يرفضه، على صحة كل ذلك، ولكن لماذا لا يقال، أيضاً، مثلاً، إن الإسلام هو دين العدل وهو دين القوة. وإن العدل في

الإسلام درجة يُقفز منها إلى الرحمة، وإن الرحمة أوسع من العدل. لماذا لا يقال إن الإسلام هُزم أكثر من ثلاثة قرون متوالية، وإن الشعوب العربية الإسلامية انتُهكت ونُهبت وشُردت وسُلبت مدة قرون ثلاثة، لماذا لا يُقال إن أول استعمار للبلاد العربية والإسلامية بدأ أوائل القرن التاسع عشر ولم ينته حتى الآن، لماذا لا يُقال إن الإسلام واضح كل الوضوح في القضايا الخلافية، ولماذا لا يُقال إن الغرب يسعى دائماً إلى تجريد العرب والمسلمين من سلاحهم في كل مناطق التوتر، ولماذا لا يُقال إن الغرب يسعى دائماً إلى حشر العرب والمسلمين لفهم واحد ووحيد للثقافة العربية والإسلامية. ولماذا لا يقال إن التجارب الأخرى التي يطلق عليها التجارب العلمانية والليبرالية لم تؤد إلى توفير الكرامة والحرية والاستقلال والتنمية للشعوب العربية والإسلامية؟ ولماذا لا يقال إن الشعوب العربية الإسلامية مهانة ومذلّة ومستلَبة على كل الأصعدة؟! ولماذا لا يُقال إن الغرب يعيش ويحيا على أنقاض عالمنا العربي والإسلامي وخيراته؟! وإن الغرب هو مصدر الحركات الإرهابية والعنصرية، وإن الإسلام أبعد ما يكون عن ذلك؟!

لماذا لا يُقال إن فهمنا ثقافتنا وعروبتنا فهم منقوص وخاطئ وغير فاعل حتى نبقى مهزومين حتى على مستوى اللغة. إن تصريح وزير الخارجية القطري الأخير الذي أطلقه في أمريكا، ومفاده أنه يجب أن نتوسل، أمريكا لتحلّ قضايانا، هو التعبير الأكثر انحطاطاً عن هذه الظاهرة.

الفلسطينيون هنا، على هذه الأرض، يقدمون الثقافة العربية والإسلامية بأبهى صورها، كيف ذلك؟! إنهم ببساطة يعتقدون أن عناصر ثقافتهم الداخلية والخارجية من القوة، بحيث تتم التضحية بالنفس من أجل كرامة الإنسان وكرامة الأرض، وبحيث يتم ذلك بأقصى درجات الرضى والاكتفاء.

الأمر الأخير، الذي أريد أن أشير إليه، هو ذلك النتاج النخبوي الثقافي من قصة ورواية وشعر ورسم وغناء، فهو تفريغ لجذور أعمق وأعرض، وهذا النتاج النخبوي ليس كل الصورة وإنما جزء منها، فقصيدة الشعر لا يتم الاعتراف بها إلا بمقدار اقترابها من ذلك الجذر العميق وفهمها إياه، ومن هنا، فإن العقلية الجمعية أسقطت من ذاكرتها ملايين قصائد الشعر التي قيلت، ولم تبق إلا قصائد قليلة عبّرت واعترفت بالجذر العميق، وكانت ابنة شرعية له وبرعماً صغيراً استمدت النسغ منه.

النتاج النخبوي الثقافي، الرسمي والمعارض، المقبول والمسكوت عنه، هو تفاصيل لعنوان كبير، والجماعة لا تعترف بمن يخالفها، وتسقط من حسابها من يسقطها من حسابه، ولهذا، فإن مقاومة المحتل وثقافته لا تتم من خلال نتاج ثقافي غامض، مطاط، يستبدل الأدنى بالذي هو خير، أو نتاج يتنكر لما مضى بما هو حاضر، أو ذلك النتاج الذي ينبهر أو يدعي أو يتضامن أو يخضع أو يدعو إلى ما لا تدعو إليه الجماعة.

ثقافة أية جماعة هي آلة ماصّة تعيد كل نتاج إلى نمط معروف تراكم بفعل الوحي أو بفعل الزمن، فإذا كان هذا النتاج لا يقبل الأنماط المعروفة، يتم رفضه إلى أبد الآبدين، وعندما ينسفح الدم في الشوارع بكل هذه الوحشية وهذه العبثية، فإن أعلى أنماط الثقافة وأصدقها وأنصعها هو ذلك الشاب المضطرم بالأنفة والجسارة والألق، الذي يرمي قلبه في كأس النار والنحاس ليستبدل به حوصلة طير أخضر.